عبقرية عمر

للأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ محمود أبو رية

لما نشرت الصحف أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد أجمع النية على وضع كتاب عن (عبقرية عمر) قلنا إنها آية جديدة على بعد إدراكه وسعة عقله ما دام هو بسبيل الكتابة عن العبقرية الإسلامية، فإنه ليس أحرى بالدرس والتأريخ بعد رسول الله صلوات الله عليه من عمر. ذلك بأن التاريخ الإسلامي لم يشهد من العدل والحزم وحكمة السياسة والقيام على أمور الرعية بالنصفة والمعدلة مثل ما شهد في عهده، حتى لقد كانت أيامه مضرب المثل الصالح في العدل والإصلاح على مدى التاريخ كله. ولقد اعتز به الإسلام من أول يوم أسلم فيه وظل عزيزاً به طول حياته، ولم يكد ينقلب إلى ربه حتى انقلبت الأحوال وتبدلت الأمور وانبعث بنو أمية بما كان جاثماً في صدورهم من الحقد والشنآن على بني هاشم، فأحاطوا بسلطان واستحوذوا على الملك، وقام الأمر منذ يومئذ على قوة العصبية والغلب، وتصدع البناء الإسلامي الذي كان قد أقيم على الشورى والعدل. وكذلك أخذ داء التفرق الديني واليأس يدب في جسم الأمة الإسلامية حتى أنهك قواها وأذهب ريحها. ولقد صدق علي في قوله يوم موته: «إن موت عمر ثلمة في الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة»

ثم أمر آخر يوجب تقديم هذا الرجل في التاريخ على غيره قد بيّنه الأستاذ المؤلف في أصدق عبارة فقال: «إن دراسة عمر غنيمة لكل علم متصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى»[1]

ولئن كان مؤلفنا الكبير قد عاجله التوفيق في وضع عمر في مكانه اللائق به في التاريخ، فإنه قد أحسن غاية الإحسان في أنه لم يتخذ في كتابه سبيل من كتب قبله فقال:

«وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأنباء، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة»[1]

وإنه لعلى حق فيما نهج لنفسه، لأن طريقة التأليف التي تقوم على سرد الحوادث وإيراد الوقائع وبخاصة إذا كان ذلك قد صار من علم الناس أصبحت من الأمور التي تبعث الضيق إلى الصدر والسأم إلى النفس؛ ولو أن الأستاذ العقاد كان قد اتبع سنن من قبله الذين يتزيدون من نقل الحوادث بنية الجمع، ويتوسعون بتدوين الوقائع ابتغاء الحشد، فإنه لا يكون قد أربى عليهم بشيء ولا تكون المكتبة العربية قد غنمت منه إلا زيادة كتاب فيها!

كان الناس لا يعلمون عما درسوا من كتب السيرة كل ما يجب أن يعرف عن عظمة هذا الرجل الذي كان «ممتازاً بعمله ممتازاً بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين»[2]

ولئن كان المؤرخون قد أطالوا في سرد تاريخه وأكثروا من بيان أعماله فإنهم لم يصلوا إلى دراسة حقيقة هذه النفس الكبيرة، ولا عرفوا كيف يتغلغلون إلى آفاقها الواسعة ومراميها البعيدة، وهذا لعمرك هو الفارق بين الكاتب الذي لا يرعف قلمه إلا مداداً يسيل على الصحف سطوراً سوداء وبين الكاتب الملهم الذي ينبثق من قلمه نور يشق الحجب لينفذ إلى ما وراءها، ويمزق النلف ليصل إلى خفاياها

إن أظهر صفة لعمر قد أشاد التاريخ بها وحفظها له رائعة جليلة هي صفة (العدل)، وعلى أنك ترى أصحاب السير قد ملأوا بطون الأسفار من الأنباء التي تثبت هذه الصفة وتدل عليها، فإنك لا تجد أحداً منهم قد هُدِيَ إلى إظهار حقيقة هذا العدل

(١) ص ١٠٧ عبقرية عمر

(١) ص ٧ من نفس المصدر (٢) ص ٢٦

العمرى ، ولا استطاع أن يصل إلى كنه أسبابه حتى يعلم الناس كيف امتاز عدل عمر من عدل غيره فبلغ به ما لم يبلغ سواه من الثناء والإعجاب ما دام يجرى على وجه الأرض حكم ، ولكنك لو رجعت إلى كتاب (عبقرية عمر) لوجدته قد وقفك على سرد هذا العدل وكشف لك عن أسبابه فيقول : « إن له روافد شتى بعضها من وراثة أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عبر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه ، وكلها بعد ذلك تمضى فى اتجاه قويم إلى غاية واحدة لا تم على افتراق[1] » . ولا يدعك على هذا الإجمال بل يفصل لك القول عن هذه الروافد حتى تصير وملء نفسك الإعجاب والرضا

ولا يكتفى بدرس هذه الصفة بل يمضى فى استقصاء دراسة سائر خلاقه وصفاته فيقول :

« إن خلائقه الكبرى كانت بارزة جداً لا يسترها حجاب ؛ فما من قارئ ألمّ بذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلاً وكان رحيماً وكان غيوراً وكان فطناً وكان وثيق الإيمان عظيم الاستعداد للنخوة الدينية »[2] . وبعد أن يحدثك بأن هذه الصفات مكينة فيه وأنها تتجه « إلى جهة واحدة ، ولا تتشعب فى اتجاهها طرائق قدداً كما يتفق فى صفات بعض العظماء »[3] . وإن هذه الصفات يتمم بعضها بعضاً « حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان »[3] يمضى فيقول : « وأعجب من هذا فى التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد ، ثم هى مع ذلك متفقه لا تتناقض متساندة لا تتخاذل كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر فى شىء »[3]

وهل تراه يقف بك عند هذا الاستقصاء البعيد أو يقنع بما قدمه من بحث ليس وراءه من مزيد ! إن فلسفته لتأبى عليه إلا أن يمعن فى الاستيعاب ويبالغ فى الدرس فيقول « وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب ، والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الإنصاف »[4] « إن إيمان عمر هو الضابط الذى يسيطر على أخلاقه وأفكاره ، كما يسيطر على دوافعه وسوراته »[1] ثم لا تدعه فلسفته العميقة حتى تظفره بسر لم يهتد إليه أحد من قبل ذلك هو (مفتاح الشخصية العمرية) ذاك الذى عرفه الأستاذ العقاد بأنه « السمة التى تميزه بين العظماء حتى فى الإيمان ، وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والصورات ، فإن الإيمان ليقوى فى نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس ... والذى تراه أن (طبيعة الجندى) فى صفتها المثلى هى أصدق مفتاح (للشخصية العمرية) فى جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم »[2]

ولم يستأثر بهذا المفتاح لنفسه بل تناوله بيد ماهرة وفتح به مغاليق هذه النفس الكبيرة ليبين للناس بقلمه البليغ خصائص عظمتها وما استفادت الحياة منها مما يجعلك تشهد مقراً بنفاذ بصره وقوة ذهنه

ويحسبك أن تراه لا يتولى ناحية من نواحى هذه العظمة إلا أتى على أطرافها وأحاط بجميع أكنافها ، ولا درس جانباً من جوانبها إلا هتك من سره وأظهر المكنون من أمره

ولا نذهب نستزيد فى بيان ما اشتمل عليه كتاب (عبقرية عمر) ، لأن ذلك يحتاج إلى مقالات مستفيضة ، وإنما نجمل كلمتنا دالة تشير إلى جملة هذا الكتاب دون تفصيله ، فإذا لم يكن فيها كل البيان عنه فليكن فيها شىء من دليله

ولعلّ هذه اللمحة تبيّن موضع هذا الكتاب الممتع الذى صور فيه العقاد عبقرية عمر أصدق تصوير وسايرها من إسلامه إلى عمله فى الدولة ومعاملته للرسول وأصحابه ، ثم ما كان عليه من ثقافة وغير ذلك مما لا تجد مثله فى كتاب قبل اليوم

ولئن كان العقاد قد كشف بكتابه هذا عن عبقرية عمر وجلاها للناس فى أروع مظهر وأبلغ بيان ، فإنه قد أثبت العبقرية لنفسه فى هذا الكتاب الفريد حتى لا يكاد يختلف فى ذلك اثنان .

(المنصورة) محمود أبو ريه

(١) ص ٤٥ (٢) ص ٤٤ (٣) ص ٤٥ (٤) ص ١٠٤

(١) ص ١١٤ (٢) ص ١١٥

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)